الأمير خالد البطل (1875-1936)

أ.د عبد القادر خليفي*

مقدمة: برز الأمير خالد على الواجهة السياسية في الجزائر سنة 1919م مدافعا عن بلده في مواجهة السلطة الاستعمارية، وقد مثل منعطفا جديدا في العلاقات الجزائرية الفرنسية. وكان دوره رياديا في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر المستعمَرة؛ وقد جعلت منه هذه الريادة بطلا جزائريا بمعنى الكلمة. وقبل أن نتطرق إلى مظاهر بطولة الأمير خالد، يجدر بنا التعرض لمعنى البطولة التي سنتحدث عنها.

تعريف البطولة: البطولة عِماد الفضائل، وهي مقرونة بالشجاعة، تُعَرَّف بأنها غَلبة يَرتفع بها الشخص عمَّن حوله من الناس العاديين ارتفاعا يملأ نفوسهم له إجلالا وإكبارا، وعكسها الجُبن، والجبان هو الهيُوب من الأمور، يَهاب الإقدام ويَهْوى الإدبار، أي أن الشخص الجبان يُحْجم عن مباشرة ما ينبغي وما لا ينبغي.

ويمكن تجزئة البطولة إلى ثلاثة ميادين: البطولة في القيادة– البطولة في الأخلاق– البطولة في الحرب.

وإذا كانت البطولة الحربية تنحصر في أربع عناصر هي (البطولة في صد العدوان– البطولة في التحرير– البطولة في الإباء والكرامة– البطولة في الاستشهاد)؛ فإن البطولات الأخرى تتمثل في بروز المرء في أحد ميادين المواجهة بين طرفين متنافسين، يمثل أحدهما جانب الحق ويمثل الطرف الثاني جانب الباطل، وتكون الغلبة فيها للأول منهما، حتى وإن كانت الغلبة فيها معنوية.

وتكون الغلبة في أحيان كثيرة مجرد الوقوف في وجه ظالم، لقد جاء في الحديث النبوي: عن أبي سعيد الخدْري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الجهاد كلمة عدلٍ (حق) عند سلطان جائر. (رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن.) وهكذا إذا كانت شعيرة الجهاد في الإسلام هي أعْتَى شجاعة وبطولة؛ فإن كلمة حق في وجه ظالم أسمى من ذلك؛ فمجرد كلمة

* أستاذ التعليم العالي بقسم التاريخ وعلم الآثار–كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية–جامعة وهران 1 أحمد بن بلة.

أو عبارة أو موقف أمام سلطان ظالم، التي نعتبرها نحن شيئا هينا، جزاؤها عند الله أفضل من الجهاد نفسه.

لقد أدت ظاهرة البطولة هذه إلى تأمين تماسك المجتمع خلال الأزمات الصعبة، لأن البطل "يعزز اللحمة بين الأفراد، إذ هو يغذي بنسقه الجماعة ككل، ويوحدها على هدف مشترك، عالم يقبله الجميع ويُقِرون به."[1] والبطل في الحقيقة هو جزء من المجتمع، لكنه يقوده ويوجهه في الواقع وفي الوجدان، في حضوره وفي غيابه.

والبطل هو ذلك الشخص المِمَيز الذي كثيرا ما يخلق منه الوجدان الشعبي مثاله ونموذجه في الحياة، أي لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان. لقد أحيط أبطال الأمة بطاقة جبارة من القدرة والطاقة على تخطي الصعاب في السلم والحرب على حد سواء، واقترنت تلك البطولة بالفروسية التي تنم عن فضائل عديدة ذات مضمون أخلاقي، تضْمن لصاحبها النصر في النهاية مهما بلغ خصمه من قوة مادية أو معنوية. وما حكايات الغزَوَات الشعبية ببعيدة عنا، عندما كان رواة المغازي الشعبية ينشدونها شعرا في الأسواق والمواسم، مثل غزوات الإمام علي بن أبي طالب وبعض الصحابة الآخرين، ومنها قصة عنترة بن شداد البطولية وقصة سيف بن ذي يزن وسيرة بني هلال وبطلاها أبو زيد الهلالي والشيخ دياب بن غانم؛ والتي كانت تنمي الحماسة الدينية والقومية في نفوس الناس، وتحفزهم على ضرورة طلب الحق بالقوة المادية مهما بلغت قوة الخصم، وقد استغلت هذه القصص الشعبية في أوقات الشدة التي كانت تصيب المسلمين شرقا وغربا.

والفروسية العربية، مثلا، لا تقوم دائما على تلك الشجاعة العضلية التي تَبرُزُ وحدها في الميدان، ولكنها شجاعة مقرونة بالفضائل والمثل التي تحددها أطر الفروسية العربية... التي تحقق لصاحبها حتمية النصر في النهاية مهما بلغ خصمه من قوة جسدية أو شجاعة معنوية.[2]

ولقد مرت سِنون دامِسَة على شعوب إفريقيا وآسيا، ساد فيها الفقر والجهل، وسيطر الأجانب على مقدرات البلاد، والذين حاولوا طمس الهويات الوطنية ودمج الشعوب المغلوبة على أمرها في بوتقة المستعمر، ولكن الحس الديني والوطني أعطى حَصانة لهذه الشعوب، التي حمت نفسها باستعادة أمجادها وتنوير أبنائها وتذكيرهم بعظمائهم، كان أعظمهم بالنسبة للمسلمين محمد صلى الله عليه وسلم، في انتظار اليوم الذي تتحرر فيه هذه الشعوب وتستعيد حريتها واستقلالها.

أبطال الجزائر: لقد مارس الجزائريون البطولة قرونا طوالا في التاريخ القديم والحديث. مارسوا البطولة الحربية الجهادية بجد في القرن التاسع عشر أمام جحافل الغزاة الفرنسيين. وسار الشعب تحت زعامة رجال ندبوا أنفسهم لمناوأة عدو يفوقهم عددا وعُدة، ولكنه لا يفوقهم عزيمة وإصرارا على إحقاق الحق وإفشال الباطل، لقد قادوا شعبهم دفاعا عن الملة والوطن وعن الحياة الحرة الكريمة.

وبذلك احتلوا مكانة رفيعة في الأوساط الشعبية باعتبارهم فرسان الميدان، المدافعين عن الحمى ضد العدو الغاصب الكافر،(كالأمير عبد القادر– أحمد باي– بومعزة– بوزيان– لالة فاطمة نسومر– المقراني– بوعمامة. وغيرهم من الأبطال الوطنيين والمحليين)، هؤلاء الذين ما تزال الذاكرة الجَمْعية تذكر مآثرهم وتتغنى ببطولتهم.[3]

وبعد مُدَّة افتقدهم الشعب ميدانيا، ولكنه لم يفقدهم وجدانيا، فقد ظل ينتظر البطل المخَلص والقائد الهُمام، الذي يؤْمِن بانتصار الشعب، ويَؤمِّن له طريق النصر، ويعمل على توجيهه والسير به نحو بر الأمان.

والبطل الذي يحبه الشعب يعيش في وجدانه، في حضوره وغيابه، فيُجسد الشعب أحلامَه وتطلعاتِه في ذلك البطل للتخلص من الوضع المزري الذي يعيشه. وميزة البطولة أو الزعامة أنها توحد الأمة وتشد زمام الشعب حول هذا الرمز.[4]

لقد مرت على المجتمع الجزائري فترات عاش فيها حالةً من اليُتْمِ الجماعي لغياب الزعيم الذي يُلِم الشمل ويوحد الصفوف ويقود الناس إلى الأفضل. وعندما يظهر البطل، أيُّ بطل، تظهر معه أشكال من الجرأة وتجاوز المعتاد، والتي قد تكون بطولة متهورة في نظر البعض؛ ولكنها معبرة عن آمال الجماهير المتعطشة إلى الحرية. وها هو البطل يظهر بعد طول غياب، يدعو إلى التحرر من العبودية ومن العنصرية ومن التحقير والاضطهاد.

إنه يحمل بذور التمرد التي تنمو في أحشاء الجماهير الطامحة إلى التغيير بصمت وببطء، ولكن بشكل حتمي أكيد. فالجماهير تنتظر ساعة الانتفاضة لتنفجر الطاقات التغييرية، التي تفاجئ الفئة المتسلطة من الاستعماريين، وتتجاوز في مداها تصورات أكثر المتسلطين تفاؤلا تحت لواء بطلها المحبوب.

ونحن عندما نحي ذكرى أبطالنا كيفما كانت وسائلهم في مناجزة العدو، إنما نحي فيهم الشهامة والإباء، وشعوب العالم كلها تحي ذكريات هؤلاء، بل هي تبحث عنهم في ثنايا التاريخ، حتى أنها قد تخلق من اللا شيء شيئا ومن الشئ أشياء.

وها هو مولود قاسم، أحد مفكري الجزائر المعاصرين، يدعو إلى استعادة ذكرى أبطالنا ومآثرنا السابقة، مبررا ذلك بقوله: "ونحن علينا أن نفعل ذلك ليس فقط حتى لا يتوهم شبابُنا أننا نعيش من فتات البشرية فقط، ولم نزد على تراثها شيئا، بل أيضا لنغرس في نشئنا روحَ الاعتزاز وروح الثقة بماضيه وبتقاليده وبأصالته وبتراث أجداده، بأمجاده لتستمر في الإنتاج ليستأنف هذه المسيرة ولينتج للبشرية، وليستمر قُدُما في مَصاف الأمم في هذه المسيرة الحضارية والفكرية..."[5]

وانطلاقا من هذه البطولات، نتساءل عن مكانة الأمير خالد (حفيد الأمير عبد القادر من ابنه الهاشمي) منها؟ وما هي مظاهر هذه البطولة؟

هذا ما سنحاول التعرض له في هذه العُجالة من خلال مواقفه تجاه السلطة الاستعمارية في مطلع القرن العشرين.

*ظهر الأمير خالد بعد نهاية الحرب العالمية الأولى على إثر ترأسه للوفد الجزائري الذي سافر إلى باريس لتسليم المطالب الجزائرية للرئيس ولسن في مؤتمر الصلح سنة 1919. وكان قد غادر الجيش الفرنسي برتبة ضابط أهلي،[6] وعاد إلى الجزائر لينشئ "كتلة المنتخبين الجزائريين" من أجل المطالبة بإصلاح أوضاع الجزائريين الاجتماعية. وقد واجهه المستوطنون بالمعارضة الشديدة، وكان مصيره الطرد من الجزائر، فالتجأ إلى مصر.

يذكر مصطفى الاشرف، صاحب كتاب "الجزائر: الأمة والمجتمع"، أن الأمير خالد تزعم المرحلة الثالثة من تاريخ العلاقة بين الجزائريين والمستعمرين، ووصف ذلك بالمبادرة التي أسمع بها الأمير خالد صوت الجزائر بعد أن خمد ذكرها منذ سنة 1871 وما تلاها من نهب وتشرد واضطهاد من المستعمر وتوسع الأقلية الأوربية على حساب السكان الجزائريين.[7]

*ظهر الأمير خالد فشد الانتباه إلى حركته في زمن كان الكلام فيه ممنوعا، فساهم بدور أساسي في نهضة سياسية واجتماعية كبيرة. فبعده مباشرة انطلقت الحركة الوطنية في مسعاها للدفاع عن الشعب؛ وبخاصة نجم شمال إفريقيا الذي سيخلفه حزب الشعب الجزائري فحركة الانتصار للحريات الديمقراطية فالثورة التحريرية سنة 1954.

إنها بطولة تستحق التنويه والإشادة، كان بوسع الأمير خالد أن يَرْكَن إلى الراحة واستغلال بقية حياته في هناء، بعيدا عن كل ما يُكَدِّر حياته؛ فقد تقاعد برتبة ضابط من الجيش الفرنسي، وهو يتلقى راتبا محترما، وهو من سلالة الأمير عبد القادر الذي تحاول السلطة الفرنسية إرضاء أفرادها حتى لا يقوموا بأي عمل من شأنه أن يُعَكر صفو وجودهم في هذه البلاد. فماذا كان سينقصه لو استجاب لهذا المبتغى؟ إنه لم يفعل ذلك، بل آثر الدخول في معترك الدفاع عن بني قومه، لإحساسه بأنهم في حاجة إلى مثله في ذلك الوقت العصيب.

* لقد ظهر بطلنا الأمير خالد في فترة خرجت فيها الدولة الفرنسية منتصرة على أعدائها عسكريا في الحرب العالمية الأولى، أي أنها كانت في عز الإحساس بالنصر، وكل من يعترض سبيلها ستعمل على سحقه قبل أن يستقيم عُودُه، وسيكون مسعاه الفشل مسبقا، فهل وضع الأمير خالد هذه الاعتبارات في ذهنه حتى لا يقلق الحكومة الفرنسية؟ أو حتى لا يتعرض لما لا تحمد عقباه؟

* إن البطولة لا تضع في حسبانها سوى وسائل العمل لتحقيق أهدافها، ولو أنها انتظرت توفر كل الظروف المناسبة لما كانت هناك بطولة، ولما تحققت أحلام الشعوب المضطهدة في أي مكان من العالم، ولنتذكر مقولة الشهيد العربي بن مهيدي عندما انقسم رواد الثورة الجزائرية إلى فريقين، فريق يدعو إلى إعداد الشعب وفريق يدعو إلى إعلان الثورة فورا، حين قال: القوا بالثورة إلى الشارع فإن الشعب سيحتضنها، فهل كانت الفكرة مغامرة أم بطولة؟

* وفي المقابل حدث في هذه الفترة من نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أن فقدت فيها المقاومة الجزائرية(المسلحة) فعاليتها بعد أن جثم الاستعمار على الأرض الجزائرية، وأتم فيها تفكيك بُنَى المجتمع الجزائري وتفتيته، وقضى على مختلف الزعامات نفيا أو قتلا، وسيطر نهائيا على القطر الجزائري من أقصى سواحله الشمالية إلى أقصى جنوبه في مداخل الصحراء الكبرى، وانتشر مستوطنوه في كل مكان يستنزفون موارد البلاد وينهبون مقدراتها.

* فهل يُعقل، وبعد كل هذه المعَوقات، أن ينتظر الجزائري الانتصار على السلطة الفرنسية في تلك الفترة؟ لو كان هناك أناس يقيسون الأمور بمَقاس العقل والتعقل، لما وقفوا في وجه فرنسا، لأن ذلك سيكون شططا وتهورا؛ ولكن الأمير خالد لم يكن فردا عاديا؛ فكان لا بد من تجاوز ما كان يعتبر مستحيلا، وكان لا بد من إيقاظ الشعب بعد فترة الركود.

* ظهر الأمير خالد في تلك الفترة كالنجم البارز في ليلة ظلماء، فأعطى للجزائر قيادة جديدة وفعالة خلال العشرينيات؛ وبهذا فإن عقد العشرينيات تميز "بولادة الحركة الوطنية في شكلها العصري الممثلة في الأمير خالد وبتأسيس نجم شمالي إفريقيا."[8]

* وفي سنة 1924 سمحت الحكومة الشعبية اليسارية، التي تولت الحكم في فرنسا، للأمير خالد بالعودة إلى فرنسا، فعاد ليقترب أكثر من شعبه، وكله عزم على العودة إلى النضال رغم ما سيعترض سبيله من قبل الفرنسيين، وعلى الأرض الفرنسية نفسها. هناك عمل على الاتصال بالزعماء المغاربيين من أجل توحيد الجهود لمواجهة العدو المشترك، لكن السلطات الفرنسية كانت له بالمرصاد فنفته إلى دمشق بسوريا التي بقي بها إلى أن وافته المنية سنة 1936.

كان الأمير خالد إذن المدافع والناطق الرئيس بلسان الجزائر المقهورة، فهو وريث الماضي ومبشر المستقبل في آن واحد.[9]

ما هي العقبات التي واجهت البطل: إن بروز الزعامة الوطنية الجزائرية لم يكن سهلا أبدا في مرحلة قمة التواجد الاستعماري؛ بل كانت هناك عقبات وعثرات تعيق أبطال الوطن عن أداء مهامهم؛ فشيوخ القبائل الكبيرة والعشائر وبعض شيوخ الطرق الصوفية والمستفيدون من امتيازات السلطات الحاكمة لن يقفوا مكتوفي الأيدي، لأن مثل هذا البطل الشعبي سيفقدهم مكانتهم بين الناس، إذ سيُبعد عنهم الجماهير الشعبية، التي ستؤازر البطل من أجل تخطي الصعاب المختلفة، وسيعقد الناس آمالهم عليه ويتحاشون أذناب الاستعمار، وبذلك سيخسر هؤلاء ما حصلوا عليه من امتيازات مادية أو معنوية تمتعوا بها طويلا، لذلك فإنهم سيعملون كل ما يستطيعون للوقوف أمام هذه الشخصيات القائدة.

وقد عمد الكثير من هؤلاء إلى مد يد العون للسلطات الاستعمارية للقضاء على هذا المغامر– في نظرهم– الذي يريد أن يسحب عنهم البساط بعد أن أصبح ملهِما للشعب، وقد وقع العديد من زعماء الكفاح التحرري، قديما وحديثا، في أيدي العدو نتيجة وشاية من صديق حاسد أو قريب راغب في التقرب من الأعداء. وكان الأمير خالد أحد هؤلاء، حين وقَّعت مجموعة من الجزائريين الموظفين الزعماء على تصريح بالموافقة على نفيه من الجزائر.[10]

هذه هي العقبة الأولى، وهي الأخطر لأنها صادرة عن بني قومه، يقول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد، وهو من شعراء العهد الجاهلي، في هذا المجال:

وظلم ذوي القربى أشـــد مَضاضةً على المرْءِ من وَقع الحُسام المهَندِ.

إنه ظلم الأقربين، وهو الظلم العميق الذي لا تمحوه حوادث الأيام. إنه الخُذلان والخيبة، وهو عكس ما يَرْتجي المرءُ من أخيه؛ لأن الأخ هو المعين المساعد عند الشدة، وعندما تنعكس الوضعية فذلك هو الخسران المبين.

أما العقبة الثانية فهي عقبة المستعمر الحاكم الذي لا يرغب ولا يريد أن يجد شخصا يتزعم سكان البلاد الذين سماهم "الأهالي". يوقظهم من نومهم العميق، يوحدهم وينظمهم، يشد أزرهم ويقودهم إلى الأفضل؛ وسينافسه في التحكم في هؤلاء "الأهالي" وقيادتهم، ليس بمهادنته ومسالمته، بل للعمل على طرده من البلاد التي اعتبرها وطنه ومستقره إلى الأبد. لذلك سيزرع العقبات الشكلية والملموسة أمام هذا الزعيم، وسيعمل المستحيل من أجل تشويه هذه الشخصية أمام الجماهير الشعبية، لإسقاطه في فخ الخارج عن القانون وإبعاده عن مجال سلطته وهيمنته. وسيضرب بقوة ليقضي على منافس جديد، ليكون عبرة لكل من يسير في طريق غير طريق الخضوع والاستسلام.

ولكن ما هو أسلوب الأمير خالد في مواجهة عدو يفوقه في كل المجالات المادية؟

أسلوب خالد في المواجهة: لقد حاول الأمير خالد الاستفادة من تجارب الشعب الجزائري في مواجهة العدو، منذ الغزو الفرنسي للبلاد سنة 1830 حتى ذلك الحين. فقد رأى أن الشعب الجزائري خاض "سلسلة طويلة من الحروب لمقاومة الغزو الفرنسي تحت راية الزعامات الدينية أحيانا أو بدافع المحافظة على تراث القبيلة أحيانا أخرى، فلما جثم الاستعمار بكَلْكَلِهِ في عهد الجمهورية الثالثة وتحطمت أركان المجتمع القديم.. استؤنف النضال على المستوى السياسي قبيل الحرب العالمية الأولى."[11]

لقد أصبح من الضروري تغيير وسائل المواجهة من الكفاح المسلح إلى النضال السياسي عن طريق إنشاء النوادي والجمعيات وتقديم العرائض والكتابة في الصحافة وغير ذلك من الوسائل السلمية. وهكذا كان الأمير خالد معبرا عن هذا الاتجاه وموجها له في سبيل الإعلاء من مكانة الشعب الجزائري ومحاولة إجبار السلطات الحاكمة على تغيير وجهة نظرها التحقيرية تجاه المواطن الأهلي.

وإذا كان الأمير خالد قد استبدل بطولة الحرب والطعان ببطولة النضال بالقلم واللسان، فلأن الوضع يتطلب ذلك، والعصر عصر فكر وحوار، وهو التقويم الصحيح للظروف والمواقف وتكيف معها. لقد اختار خالد ميدان الشرعية، أي مواجهة الاستعمار ومفاجأته باستعمال الأسلوب نفسه الذي درج عليه، والرجوع إلى مؤسساته الخاصة.

إن بطولة الأمير خالد لم تكن بطولة تهور وتسرع، بل كانت بطولة تعقل وسياسة. لقد خبر العالم وعَرَفه، فعمل في اتجاه يمكِّنه من تثبيت أقدامه ويسمح له بالانطلاق نحو تحقيق مصلحة الأمة التي ينتمي إليها قلبا وقالبا.

لقد فرض الأمير خالد نفسه كبطل على عصره وجيله فرْضاً، وأصبح هذا البطل شيئا مميزا في تاريخ الجزائر، وبذلك أصبح شيئا كائنا في عصره، لأن مَن لا يكون شيئا في عصره لا يكون شيئا في العصور التي تليه؛ فقيمة الشخص في تواجده في عصره وفي بيئته وفي كفاحه في ذلك العصر وتلك البيئة، وبذلك يكون جديرا بها، وهكذا برهن الأمير خالد على أنه ابن عصره حقا وأنه أحبه بنكران ذاته وأفنى نفسه لأجله.

ما هي المؤهلات التي استند عليها خالد؟: إن انتماء بطلنا إلى هذا الوطن الجزائري وإلى هذا الشعب الأبي جعله يدرك مدى ما يقاسيه أفراده من ذل وقسوة وحرمان، فالمظالم طاغية والحقوق منعدمة والأحكام جائرة، فخرج إلى الميدان يُعلي صوته صارخا أن أنقذوا هذا الشعب. "لقد رأى خالد نجمه يعلو نهاية الحرب لاعتبارات تعود إلى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر، وأنه كان عارفا بالحضارة الإسلامية والأوربية، وأنه كان محاربا قديما، قضى زمن الحرب على الجبهة الأوربية."[12] كانت للأمير خالد عدة مؤهلات سهلت له تقلد الزعامة في تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الجزائر.

1– إن ذكرى جده كانت ما تزال في ذاكرة الشعب تُحي في نفوس الأفراد ذكرى الآباء والأجداد الرافضين للذل والهوان، الباذلين جهودهم لصالح هذا الوطن وهذا الشعب. إن نسبه المرتبط بجده، رائد الكفاح المسلح، سهل عليه اكتساب شعبية معتبرة، وأمده بطاقة خلاقة يشق بها طريقه الصعب. لقد هيأت الأقدار الأمير خالدا لأن يكون له شأن، إنه وُلد حفيدا للأمير عبد القادر، ونشأ في وسط عائلي يطغى عليه احترام القيم والمثل العليا، وتذكره المأثورات العائلية بذلك المجد الخالد الذي سطره جده مع الخالدين من قادة هذا الشعب الأبي.

لقد استلهم الأمير خالد بطولته من جده في العصر الحديث مثلما استلهمها جده من أسلافه الذين هَدَتهم الفطرة إلى لون من الحياة، فتكونت لهم فيها بداوة وفيها فطرة، وتميزت لهم أخلاق فيها بأس وفيها شِدة.

في ظل هذه "الصورة الأميرية السامية، التي تجر وراءها ذكريات حية راسخة، عن مقاومة مجيدة باسلة، والسمعة التي زادتها أسطورة الشرق تضخما، وجد الفتى خالد، وعيناه تتقدان ذكاء وتتحرقان شوقا إلى المعرفة ومزيد من الإصلاح لدى جده رئيس الأسرة المالكة، شخصية القائد الذي لا يَكِل ولا يَمَل، والفيلسوف الورع الجذاب، والشاعر الذي يُصغي إليه الفرس والفروسية معا."[13]

2– ومن أعمامه– الذين استلهم منهم البطولة– محي الدين، الذي غامر من بلاد الشام قاصدا أرض الوطن ليثير النفوس ويدعم المقاومة التي كان يقودها أبطال آخرون كمحمد بن عبد الله وبناصر بن شهرة وبوشوشة وغيرهم. فقد اجتمع مع بناصر بن شهرة وآخرون في مدينة نفطة بالجنوب التونسي سنة 1869، ومن هناك راسل بن شهرة ومحي الدين القبائل والعشائر الجزائرية يحثانها على الجهاد.[14] وفي ماي 1870 استقر بن شهرة بعين صالح ومعه مجاهدو الصحراء الشرقية، والتقى جيشه بجيوش الشعامبة بقيادة بوشوشة ومجاهدو أولاد سيدي الشيخ بزعامة سي الزبير، وقاموا بعمليات ضد القوات الفرنسية وضد أعوانها من الجزائريين.

3– كما استلهم نموذجا آخر، من عمه الأمير عبد الملك الذي غامر ليترك أهله في بلاد الشام هو أيضا، ويتجه إلى الوطن الأم، فيلتقي بالشيخ بوعمامة في الأرض المغربية سنة 1903 محاولا توحيد النضال لمواجهة الاستعمار الفرنسي، وعندما لم يجد ما كان يبتغيه من قوة مادية، تركه وانضم إلى الجيلالي الزرهوني(بوحمارة)، الذي ثار على السلطان المغربي، متهما إياه بالتعاون مع البلدان الأوربية الطامعة في خيرات البلاد الإسلامية، فدخل في التاريخ المغربي بكل قوة. يقول عنه أحد الكتاب المغاربة أنه "خاض في السياسة الفرنسية والاسبانية، عدوا شرسا أو مُهادنا سنوات طوالا، وأقضَّ مضاجع مهندسي السياسة الاستعمارية في المغرب الأقصى سنوات طوالا."[15]

4–كما استلهم الأمير خالد الجرأة والزعامة من رجال الإسلام الأوائل الذين قادوا الفتوحات شرقا وغربا، فظهر أبطال للجهاد في سبيل نشر دين الإسلام، وصار الواحد منهم يَعْدِل أمة في رجولته ورجاحة عقله ونفاذ بصيرته وتمام فتوته. وهكذا فتح هؤلاء الأبطال البلدان بأخلاقهم وهَدْيهِمْ قبل

أن يفتحوها بسيوفهم وغلبتهم، هؤلاء هم القدوة وهم المثال، قال عليه الصلاة والسلام: "أصحابي كالنجوم بأيِّهِم اقتديتم اهتديتم."

5– لقد سماه والده الهاشمي خالداً، فهل جاء هذا الاسم اعتباطيا أم قدرا مقدورا؟ وهل كان بمقدوره أن يتنبأ بما سيحدث لابنه بعد حين؟ أم أن الأقدار هي التي تسير به نحو قدره المقدَّر. لقد تسمى باسم خالد بن الوليد الذي وصفه النبي محمد صلى الله عليه وسلم بـ"سيف الله المسلول"، والذي كانت له اليد الطولى في الفتوحات الإسلامية داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، والذي فاق أقرانه قوة وتخطيطا وجرأة.

كان الأمير خالد، يحمل اسم أحد أشجع رجال الفتح الإسلامي؛ بل هو أحد قادة الجيوش القلائل في التاريخ الذين لم يُهزموا في معركة طوال حياتهم. فقد حارب قوات بيزنطية وفارسية وحلفاءهم من القبائل العربية المتنصرة أو الصابئة المشْركة، لقد اشتهر خالد بن الوليد بانتصاراته الحاسمة في المعارك التي خاضها وتكتيكاته التي استخدمها في الوقت المناسب؛ وها هو خالد حفيد الأمير يغامر ولكن بروية ويواجه ولكن بحساب.

ميادين نضاله: برز الأمير خالد كزعيم وطني –كما ذكرنا آنفا– خلال عام 1919، عندما دخل الانتخابات البلدية، فحصل على 940 صوتا، مما أهله لأن يكون ناطقا باسم الشعب، وهكذا تجلت سمعته ومكانته في الأوساط الشعبية التي آزرته وشدت عَضُدَه واستعدت للسير حيث يسير، واكتسحت تحت قيادته كل من أراد التعرض له في ميادين الانتخاب. ونَظم اجتماعا شعبيا طلب فيه من المشاركين التوقيع على مذكرة موجهة إلى الرئيس الأمريكي ويلسن، هاجم فيها الاستعمار الفرنسي وطالب فيها بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه.

1– إنها الشجاعة عِماد الفضائل، شجاعة جعلت من ضابط أهلي صغير يتجاسر للوصول إلى أكبر تجمع دولي في أكبر دولة استعمارية آنذاك، كيف أمكنه أن يفعل ذلك لولا ميزات الأنفة والكبرياء وروح التضحية والفداء التي اتصف بها بطلنا الزعيم؟ لقد فرض الأمير خالد نفسه على وجدانه وعلى محيطه، جزائريا كان هذا المحيط أم فرنسيا.

2– ركز معارضته لدعاة الإدماج والداعين إلى التجنّس بالجنسية الفرنسية. لقد رفض ذلك الإدماج الذي كانت تطالب به فئة من الجزائريين بغرض الحصول على حقوق المواطنة، ودافع عن الشخصية

الجزائرية رغم ثقافته الفرنسية العالية، وانتمائه إلى جماعة النخبة المتأثرة آنذاك بالحضارة الغربية، رفض الإدماج لأن أصالته كانت أرجح وأثبت في وجدانه وحياته.

3- كما عارض غلاة المعمرين والنوّاب الفرنسيين، الذين لم يُعِيرُوا أي اهتمام للجزائريين، وهو بذلك عارض ممثلي السلطة ومساعديها، وهو الجانب القوي في معادلة: الأهالي مقابل الفرنسيين وأعوانهم، ووقف إلى جانب أبناء وطنه المقهورين التعساء، وهو الطرف الأضعف في المعادلة.

4- وفي سنة 1922 أسس الأمير خالد جريدة الإقدام ليُفصح عن مطالب الشعب في الحرية والكرامة ونبذ الظلم والحقارة من قبل المستعمر إدارةً ومعمرين، فكان لمقالاته دور بارز في الحياة السياسية لذلك العهد. لقد اتسم بطلنا بقدرة كبيرة على التأثير في الآخرين.[16] وتمكن من شد أواصر الجماهير بخيط ملتهب قابل للانفجار عند الضرورة، فيه من العقلانية رصيد ومن اللهب رصيد، وكان عليه أن يُنَمي إرادة الجزائريين في التحرير، ويجعل منهم أناسا حقيقيين بعد أن أذلهم الاستعمار.

لقد رفعت جماهير الشعب قائدها البطل إلى مقام الزعامة ووقفت إلى جانبه تسنده وتسير معه مندفعة بحماس فياض. أعاد إليها الإحساس بالكرامة وتحقيق الآمال المكبوتة في النفوس منذ أجيال، وأصبح البطل خالد رمزا للنضال والكفاح في نظر شباب الجزائر كمَثلٍ يُحتذى به للعمل على استمرارية كفاح أبطال سبقوه ما تزال ذكراهم تستثير في قلوب السكان المقهورين آمال الشعب الرافض للاستسلام.

كان صراع الأمير خالد ضد الظلم والاستبداد وضد الجبن والانكفاء والضعف، هو صراع لما هو سيء ولأجل ما هو أحسن، هو مقاومة للواقع ضد كل جمود في سبيل التغيير لما هو أفضل.

لقد صرخ ذات يوم عندما كان طالبا بمدرسة سان سيير العسكرية عام 1893 قائلا: إنني عربي وأريد أن أبقى عربيا، لا أتخلى أبدا عن قناعاتي ومطامحي.[17]

موقف السلطات الفرنسية: هكذا كان للأمير خالد دور كبير في جمع الطاقات الجديدة في الجزائر المحتلة، فما موقف السلطات الاستعمارية من ذلك الانتصار الذي حققه الأمير خالد؟

لقد هالها ما حققه الأمير خالد من نصر، فراحت تكيد له بوسائل المكر والمؤامرة، وتشن عليه صحافة المعمرين حملة شعواء متهمة إياه بالتطرف والخطر والقيام بنشاطات معادية لفرنسا. لقد أرهبت الانتخابات الإدارة الفرنسية الاستعمارية وأخافتها من إمكانية القضاء على نفوذها في

الجزائر، فسارعت إلى إلغاء نتائج الانتخابات بدعوى عدم كفاءة مرشحي الحزب. وانتهت الحملة ضد الأمير خالد إلى إجباره على مغادرة الجزائر للاستقرار بالمشرق العربي بعد تقديم استقالته من عضوية المجالس المحلية.

وقبل أن يغادر الأمير خالد الجزائر كان له موقف بطولي يتسم بالشهامة والكبرياء، أبرزَ من خلاله شيم الفروسية النبيلة، لقد عَرَضت عليه الإدارة الاستعمارية، على يد الحاكم العام (م. ستيغ)، مركزا عاليا يليق بمقامه إن هو توقف عن القيام بأية إثارة سياسية. فكان رده صريحا واضحا، حيث قال للحاكم العام "إن اقتراح حكومتك مهين. إني أرفض رفضا باتا كجزائري مسؤول انتخبه الشعب، وأبقى مخلصا للجزائر."[18]

ونتيجة لهذا الموقف المفعم بالوطنية قرر الحاكم العام تطبيق أوامر حكومته بنفي الأمير خالد نفيا مؤبدا عن الجزائر، وانتقل الأمير خالد وعائلته على ظهر سفينة حملته إلى مدينة الإسكندرية بمصر سنة 1923.

وهكذا يتبين لنا كيف كانت سلطات الاحتلال تناور وتقدم العروض والمغريات، مغريات المهانة والخضوع لإبعاد زعماء الحركات الوطنية عن أهدافهم، فعلت هذا مع من ثاروا ضدها خلال القرن التاسع عشر، وها هي تعيد الأسلوب نفسه مع زعماء القرن العشرين. وإذا كانت قد وُفقت في ذلك أحيانا فإنها لم توفق مع الأبطال الحقيقيين ممثلي الشعب الشرفاء في أحيان أخرى.

لم يضعف الأمير خالد إذن ولم تلن عريكته أمام تهديدات السلطات الفرنسية وأمام عروضها المشينة الداعية إلى خيانة القضية الوطنية والتمتع بالمنصب والجاه، بل واصل نضاله خارج الوطن بعد نفيه، وعندما سُمح له بالإقامة في فرنسا سنة 1924 جدد نشاطه هناك،[19] واتصل بالجالية الجزائرية ينظمها ويعبئها للمطالبة برفع المظالم عن الشعب، وألقى عدة خطب، وقدم العرائض إلى رجال الحكومة بباريس الداعية إلى المساواة في الحقوق والواجبات والاهتمام بقضايا المواطنين الجزائريين، وقام بعدة اتصالات مع الحركة العمالية الفرنسية وبالحركة العمالية العالمية.

ووسع نضاله ليشمل كافة أقطار المغرب الكبير، لقد كانت نظرته أوسع من الوطن الصغير إلى وطن إقليمي أوسع تسيطر عليه القوة الاستعمارية نفسها، فكان اتصاله بالأمير عبد الكريم الخطابي من أجل توحيد الجهود للدفاع عن بلاد إفريقيا الشمالية. ونتيجة لمواقف الأمير خالد الصلبة قامت حملة فرنسية شعواء تبين الأخطار المحدقة بفرنسا، والتي يثيرها "حفيد عدو فرنسا"، كما عبر عن

ذلك نائب قسنطينة مورينو في تدخله، ووجهت إلى الأمير عدة تهم وُصف فيها بمختلف الأوصاف المعادية لفرنسا.

فقامت السلطة الفرنسية بتهجيره آخر الأمر إلى البلاد السورية عام 1925م[20]، وهو معلق الجسد والفكر تجاه وطنه العزيز. وهكذا "فإن حركة الأمير خالد لم تمت نتيجة نفيه واعتقال أصحابه وعزل حزبه، فقد استمر خالد، سواء في باريس أو في المشرق الأدنى، في إبقاء شعلة نار الحركة الوطنية والإيحاء إلى أتباعه بحملها إلى الأمام."[21]

ولم يكن مكوثه هنا أو هناك بعيدا عن وطنه مأساة يقاسي فيها مختلف أنواع الهموم والأحزان، بل كانت بالنسبة إليه أوضاعا يجد فيها سعادة وشرفا، وهذا ما جاء في إحدى رسائله: "إني لسعيد فيما قاسيته في سبيل الوطن ولا يزيدني ذلك إلا قوة وأملا وفخرا وشرفا..."[22]

وإذا كان الأمير خالد قد برز في ميدان السياسة والتاريخ فما موقف الشعر والأدب منه؟

الشعراء يخلدون خالدا: لقد خلد العديد من الشعراء الجزائريين الأمير خالدا في عصره مثلما خلدته الكتابات الرسمية. وبذلك لم يكن الأمير خالد سحابة صيف زائلة، بل كان لبنة من لبنات هذا الوطن العزيز، سجل اسمه في سجل الخالدين، وترك بصماته في مختلف مظاهر حياة الشعب الجزائري، فتغنى بمجده الشعراء، والشعر وسيلة لتمجيد مواقف الأبطال النبيلة، يصاحب قضايا الناس فيأخذ ويسجل، والشعر للأمة "هو... سجل فخرها وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها"[23].

كان الأمير خالد مناضلا وطنيا لكل الجزائريين، ورغم الظروف الصعبة التي كان الشعب الجزائري يعيشها في ظل السيطرة الاستعمارية، فقد كان على دراية برجاله المناضلين من أجل الدفاع عن حقوقه المغتصبة، وكانت الفئة المثقفة في مقدمة الشعب المقهور، تحس بكل ما يعانيه الشعب من ذل وهوان، وتعبر عنه في إبداعاتها شعرا ونثرا. لهذا كان الأمير خالد حاضرا في إبداعات الشعراء. وها هو الشاعر محمد السعيد الزاهري يمجد البطولة في الشعب الجزائري سنة 1926 بقوله:

يُخلق ناسٌ كالصقور الكَواسِر ويبْقى أناسٌ تحتَ دَقِّ الحَوافِرِ
فسُبْحانَ قسّام الحُظوظِ فإنهُ لأقْدَرُ بالأشْياءِ مِنْ كُل قادِرِ.[24]

ويمجد الشاعر نفسه الأمير خالدا في قصيدة أخرى، بعد نفيه من الجزائر في قوله:

سَلامٌ عَلَيْهِ بَعْدَما بَانَ خالِدٌ سَلامٌ عَلَيْهِ بَعْدَما انْجَلتْ الحَبَا
تَنَأى لكِنْ ليسَ يَبْرَح خالداً جميلٌ ثناياهُ يَيننا ضارباً خَبَا.

وها هو الشاعر محمد العيد آل خليفة يرثي الأمير خالدا غداة وفاته سنة 1936 بقصيدة رائعة جاء فيها:

ما أطول الموْتَ باعَا لم يَخْشَ حَتى السِّباعَا
سَطـا عَلَيْنا بسَـوطٍمِـــن القضاءِ فراعَـا
وأوْدَعَ التربَ نجْمـــاًمنه اقتبَسْنـــا شُعاعَا
وصارِمـــاً هـاشِمِياًبه هَشَّمْنا القِلاعَـا
اليَوْمَ يا قلبُ فاهْلكْ تَحسُـراً والتِيَـاعَـــا
واليومَ يا طرْفُ فاذْرفْ مِنْكَ الدموعَ تِباعا
ابْـكِ الزعيمَ المفدَّىابْكِ الأمير المطاعـا
ابك الكريمَ المسَجَّى ابك الغَيورَ الشجاعَا

إلى أن يقول:

قـــلْ للجـزائـر أدِّي حَـــقَّ الزعيم المضاعا
هَلا اصْطَنَعْتِ جَميلاًلَدَى الجَمِيلِ اصْطِناعا
هلا ذكَرْتَ كِفاحـاًمَضى لـــهُ وصِراعـــا
كمْ ذادَ عَنكِ وقاسَى فيـــكِ الأذَى والنزاعـا
وكيفَ نـــابَ وُثوبـاًبصِدْقِـــهِ واقْتِنـــاعـــا
وكيفَ نادَى فدانَتْ لهُ الرؤوسُ اتِّبَاعَـــا[25]

هكذا رأينا أن البطولة لا تقتصر ، كما هو معروف لدى عامة الناس، على الشجاعة في ميدان الحرب والنزال البدني، ولكنها التفوق على الغير بالشيم النبيلة والمواقف العظيمة ومواجهة التحديات للوصول إلى الهدف المسطر. وهذا لا يعني أن النصر سيتحقق في الحين، بل إن النصر سيكون قريبا. وقد سطر الأمير خالد هذا الطريق لمن جاء بعده ليكمل المشوار ويتحقق المطلوب، وهذا ما حدث مع نجم شمالي إفريقيا، وبعده حزب الشعب الجزائري. كما حدث مع جمعية العلماء التي أسس روادها نادي الترقي في منتصف العشرينيات لتكتمل في مطلع الثلاثينيات جمعية تدافع عن القيم والهوية الجزائرية. وحمل الجميع مشعل النضال من أجل تحقيق الحرية والاستقلال الذي ناله الشعب الجزائري سنة 1962م.

الهوامش:

1– علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت 1982، ص: 36.

2– يرتبط معنى الفروسية في كل لغات العالم بالشجاعة والشهامة والثقة بالنفس. حاول الكاتب والسياسي المصري واصف بطرس غالي (1878–1958) الربط بين تقاليد الفروسية في العصور الوسطى الأوروبية وبين آداب العرب وعاداتهم في كتابه: "**تقاليد الفروسية عند العرب**"، الذي تناول فيه المؤلف العديد من الخصائص الأساسية للفروسية، وخاصةً الحسب والمكانة في الأصل والأخلاق؛ واحترام المرأة والخيول والأسلحة؛ وفوق ذلك كله، الشرف، الذي يعتبره أمراً مشتركاً بين العرب والأوروبيين في العصور الوسطى.

3– تحتفظ الذاكرة الشعبية بكثير من القصص والأغاني الشعبية التي تمجد هؤلاء الأبطال وتحكي عن بطولاتهم الحقيقية منها والخيالية، وبخاصة في المناطق التي كانت ميدانا لحركتهم البطولية. يمكن العودة في هذا(كمثال) إلى عبد القادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت 1984.

4– قد يكون الرمز شخصا متوفى له ضريح يستلهم منه الأتباع أو الخلف الشجاعة والإقدام والتغلب على المآسي والأوضاع السيئة؛ هذا ما حدث عندما كان زعماء أولاد سيدي الشيخ يعلنون الجهاد انطلاقا من قبة سيدي الشيخ –جد العائلة– الموجودة في بلدة الابيض سيدي الشيخ بولاية البيض(حاليا) في القرن التاسع عشر. حدث هذا في مقاومتهم سنة 1864 وفي مقاومة الشيخ بوعمامة سنة 1881. لذلك قرر الجنرال نيقري الحاكم العسكري لبلدة جيريفيل هدم القبة لإتلاف هذا الرمز، وقد نفذ عزمه يوم 15 أوت 1881.

5– مولود قاسم نايت بلقاسم، اهتمام الأمم بأيامها، مجلة الأصالة، العدد: 44، ربيع الثاني 1397هـ/أفريل 1977م. كلمة مرتجلة في قاعة "المغرب" لبلدية وهران ليلة المولد النبوي الشريف سنة 1397هـ/الموافق لـ 2 مارس 1977.

6–دخل المدرسة الحربية سانت سير بإلحاح من والده 1893–1897 وتخرج برتبة ملازم، ورفض التجنس رغم الإغراءات المقدمة للمتجنسين.--- 7–مصطفى الاشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص: 79.--- 8– عبد القادر جغلول، تاريخ الجزائر، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة 1983، ص: 133.

9–أنظر: Djeghloul Abdelkader, Eléments d'histoire culturelle algérienne, ENAL; Alger 1984, P/233.--- 10– عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، دار الثقافة، بيروت 1980، ص: 474.

11– صلاح العقاد، المغرب العربي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1982، ص: 311.

12– أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، ش و ن ت، الجزائر 1983، ص: 381.

13– بوعلام بسايح، الأمير خالد حفيد عبد القادر، مجلة الثقافة، العدد 97، يناير/فبراير 1987، ص: 8.

14– يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، (تنظر صفحات: 249–281.)

15– جعفر بن الحاج السلمي، الأمير عبد الملك الجزائري وموقف المغاربة منه، مجلة عصور الجديدة العدد: 16–17، شتاء ربيع 2014–2015.--- 16–كسب تعاطف عدد من الأحرار في فرنسا وحتى في الجزائر أمثال فكتور سبسيلمان من جريدة تري دي نيون، والناشر باريكاند.--- 17– بوعلام بسايح، المرجع السابق، ص: 8.--- 18– عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص: 474.

19– تولت الحكومة اليسارية بزعامة إدوارد هيريو.--- 20– اتهم بحمل جواز سفر مزور ومحاولة الهرب من منفاه إلى أوربا.

21– أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 293.--- 22–عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص: 479. جاء ذلك في إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه.--- 23– زكي المحاسني، شعر الحرب في أدب العرب، دار المعارف بمصر 1961، ص: 6.

24–صالح خرفي، محمد السعيد الزاهري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص: 91.

25–أبو القاسم سعد الله شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص: 150.

ABSTRACT: Prince Khaled is considered one of the heroes of contemporary history of Algeria, his heroism emerged through several personal positions in the face of the colonial authorities. He Has been challenged by the time where the Algerians haven't value in the early twentieth century, carry the people's demands to the Conference of world peace in 1919, and entered the local elections to deliver the voice of the people to the French platforms, and refused to compromise the interests of Algeria on its own interest expense, and the patience of the persecution and exile from his own country, the expatriate died in a longing to his beloved homeland in 1936.